

فكاهات

روايتها

﴿ الفوز بعد الفوت ﴾

بقلم حضرة الكاتبة السيدة ليبة هاشم

وكنْتَ اذا ارسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً اتعبتك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلهُ انت قادرٌ عليه ولا عن بعضه انت صابرُ

حدث في مدينة بيروت ان شاباً يدعى جبرائيل قدم اليها من مدينة حلب الشهباء واكثرى لنفسه غرفة مفروشة في جهة يقال لها ميناء الحصن وهو مكان تكتنفه السهول والفياض الزاهرة والمناظر الطبيعية الانيقة ويزيده تكسر امواج البحر المتوسط على شواطئه روتقاً وجمالاً فتجاو زرقته عن الصدر المموم وينفي صوت عجيجه عن القلب الشجون . وكان الفتى ربة القوام عريض الجبهة حاد البصر اسود العينين والشعر تدل ملامحه على الذكاء وتوقد الذهن . اما سبب قدومه فانه كان قد اصدر جريدة سياسية يخدم بها وطنه فلم يشعر يوماً الا وقد صدر اليه الامر بتوقيفها الى أجل غير مسمى لانه تطرف في بعض مباحثها السياسية الى ما لا يوافق مصلحة الحكومة وبذلك أقفل امامه باب الرزق واصبح من جرآء ذلك في ضيق شديد فترك وطنه وذهب هائماً على وجهه يبحث عن

وسيلة يجدد بها بناء ما هُدم من مستقبله حتى وصل الى بيروت فاستوقفه ما عاين فيها من حسن الموقع وجودة الاقليم اللذين لا يجهلها كل من ساقه الحظ لمشاهدتها فضلاً عن انه وجد ان سوق الآداب والعلوم رائجة فيها لتقدم اهلها في المعارف والحضارة فصمم على الإقامة بها ومزاولة صناعة الانشاء والتدريس واعلن قصده على صفحات بعض الجرائد

ولما كان اليوم الاول من دخوله الغرفة الجديدة جلس على متكأ قرب النافذة واخذ يجيل نظره في الاماكن المجاورة فرأى امامه سهلاً فسيح الجوانب قد كست يد الربيع حلاً مختلفة الاشكال متعددة الالوان يمر عليها النسيم فتماوج تيهاً ودلالاً ويسمع لها حفيف اشبه بمناغاة الطفل او تتريد الاطيار يمازجه صوت امواج البحر المتلاطمة بالقرب منه وهي متتابعة المهجوم يخالها الرائي قريبة الوصول اليه ولكنها لا تلبث ان تعود القهقري وقد تمزق شملها كنبات نعش وبالجملة فانه منظر بهيج ينعش القلب ويذهب بالمرء الى عالم التصور والخيال

وبينا كان جبريل يرسل نظره في تلك الجهات اذ رأى على مسافة قريبة قصرًا يفوق كافة المنازل المجاورة في حسن البناء وزخرفة النقش تكتنزه حديقة حافلة بالاشجار مزدانة بالازهار يتخللها طرق وارصفة منقوشة بالحصى الملونة والصخور الصناعية تقذف منها المياه فتجري مناسبة حولها تروي النبات وفي احدى نوافذه كانت فتاة جالسة تتعاطى بعض الاعمال اليدوية وقد ظهر قسم من وجهها الوردي البديع تتدلى حوله ضفائر شعرها كاسلاك من الذهب

فلبث الشاب محققاً اليها ببصره متلذذاً بهذا المشهد اللطيف الى ان كانت منها التفاتة فصادفت عيناها عيني جارتها الحديث اذ كان لم يزل متفرساً فيها وقد ادهشه ما رأى من جمال طلعتها ولطف ذاتها فاضطربت الفتاة لدى مشاهدته على تلك الحال واسرعت فقربت من امامه كالظبي النافر وقد صبقتها حمرة الحجل

ومن تلك الساعة بدأ جبرائيل يشعر بجاذب يجذبه الى الجلوس بقرب النافذة ليستمع بمرأى جارته التي لم تكن اقل منه شغفاً بذلك ولم يمض اسبوع على وجود الشاب في المدينة حتى توفرت لديه الاشغال بما يكفل له حسن حاضره فعين منشئاً لبعض الجرائد وكثر لديه طالبو العلم فكان يعطي دروساً متفرقة في ساعات معينة فحسنت حاله وتوفرت موارد ربحه

ولما كان بعض الايام وردت على جبرائيل رقعة من احد الموسرين واسمه نemat بك يدعو لاعطاء دروس في منزله فسار اليه يتقدمه خادم صاحب الرقعة الى ان انتهى به الى باب منزل جارته ولما صار امام الباب وقف الخادم وقال تفضل ادخل يا سيدي . فلبث جبرائيل واقفاً كالتمثال يفكر فيما عساه ان يكون من هذه الدعوة فتارةً يخيل له انها حيلة عمدت اليها حبيبتها لاستقدامه ثم يفالط نفسه لان الدعوة كانت من ابياها وطوراً يظن انها ربما باحت الى ابياها بحالهما وكاشفته بواطفها فرام استدعاءه ليختبر حاله وهكذا كانت تتقاذفه الافكار وتذهب به

الآمال الى ذروة المجد فيخيل له ان السعادة تدنو منه وانه سيحصل على
تلك الدرة الثمينة فيهنى نفسه بهذا الفوز السريع
واخيراً دخل بصحبة الخادم الى غرفة الاستقبال وكانت مزينة باحسن
الرياش وفي صدرها رجل يبلغ الخمسين من العمر هو نعمان بك فاستقبل
الاستاذ باقتسام وبعد ان استقرّ بهما الجلوس ذكر له انه يروم تعليم ابنته
مبادئ اللغة الفرنسية فاجابه الى ذلك مسروراً

ومضت تلك الليلة وجبرائيل يحلم الاحلام الجميلة منتظراً بقلب متلويب
دنو الساعة الاولى التي يمكنه فيها التمتع بقرب فانتته التي اصبحت تلميذته كما
زعم فكان يرى الدقائق تمر به كالايام والساعات كالاعوام ولم يصدق ان
حان الوقت حتى هرول مسرعاً الى منزل نعمان بك حيث ادخل غرفة
التدريس في الطبقة السفلى فوجد التلميذة تنتظره هناك والى جانبها حاضنتها
فأملوا جبرائيل واذا هي ليست تلك التي ينتظرها بل كانت فتاة تبلغ الثالثة
عشرة من العمر جميلة المنظر فعلم انها لا بد ان تكون شقيقتها لما وجد بينهما
من المشابهة فشرع في تعليمها وفكره شارذ في عالم آخر ونظاره متجه ابدأ
نحو الباب منتظراً من وقت الى آخر دخول مالكة فؤاده اذ لم يكن
عنده ريب في انها ستحضر متى علمت بوجوده . ولكن مضى الوقت
وحان له الانصراف وهي لم تحضر فنهض كاسف البال وخرج وقد كادت
تفنى منه الآمال لو لم يتس لها فؤاده ببض الاعذار فعمل نفسه برويتها
في اليوم التالي ولكنه كان كالقابض على الريح اذ مضى عليه اليوم الثاني
والثالث والاسبوع الرابع والخامس والشهر السادس والسابع دون ان تمن

عليه بزورة او ترحم فؤاده بنظرة . واخيراً عيل صبره وعلم انه في وادٍ وهي في واد وان لا دخل لها في دعوته بل ان الاتفاق اوقع اختيار الاب عليه لتعليم ابنته الصغرى ومن ذلك الحين تراكت عليه الاحزان واشتد به اليأس ولا سيما لانه لم يكن يرى على محياها الجميل اشارة تفيد مشاركته في ذلك الوجد والقلق او حركة تشير الى اسباب الجماء والصد بل كانت تظهر كل يوم في نافذتها باسمة الثغر مشرقة الجبين كأن لا علم لها بشيء مما يجري حولها ولا ما يقاسيه ذلك المسكين . فحمل ذلك منها على عدم الاكتراث بحاله ووجد لها عذراً في ذلك وهو تباين منزلتيهما من حيث الرفعة والذنى فرأى ان الابتعاد عن ذلك المكان خير وسيلة للسلو واعظم مساعد على النسيان وكتب الى نعمان بك يخبره بعدم استطاعته الاستمرار على تعليم ابنته ويسأله الاعفاء فاجابه ذلك الى طلبه بعد ان ضرب له موعداً يوافيه فيه الى منزله لاجراء الحساب بينهما

وهكذا حضر جبرائيل في الوقت المعين لاستيفاء الاجرة ووداع ذلك المنزل المحبوب الى الابد ولمكنه لم تطأ قدماه الباب الخارجى حتى وقف مبهوتاً اذ رأى شخص حبيته يتمايل بين الاشجار وهي تحجبها تارة وتظهرها اخرى فتبدو من خلالها تقاطيع جسمها البديع وهي مرتدية ثوباً حريراً تحاكي الوانه ازهار الربيع التي كانت منتشرة حولها تغطي قدميها الصغيرتين . فلم يشعر جبرائيل الا وقد صار امامها كأن يداً قوية دفعتة الى ذلك المكان ثم وقف بنته ولم يدر كيف يفتحها الحديث

اما هي فحين ابصرته توقفت فجأة كمن مسه سلك كهرباثي ثم ما

لبثت ان اسرعت نحوهُ باسمه توشك شدة الفرح ان تتمّ بخفايا ضماؤها فبادرها بالسلام بينما كانت ترحب به ثم دعتهُ الى الجلوس على مقعدٍ هناك وبعد سكوت دام بضع دقائق قالت لهُ وقد توردت وجنتها اني اهني نفسي بقدمك يا سيدي ولا ريب في ان ابني سيسر كثيراً بزيارتك هذه التي اوّمل انها تكون فاتحة الزيارات بيننا . فاجابها اني اشكر كرم اخلاقك يا سيدي واخبرك مع الاسف ان زيارتي هي خاتمة الزيارات بيننا . فاجابتهُ مكتئباً وكيف ذلك . قال لقد سبقت فطلبت الى والدك ان يعفيني من تعليم ابنته وهآءنذا اتيت للمرّة الاخيرة تلبيةً لدعوته فقاطعتهُ قائلةً وهل كنت انت الاستاذ الذي وكل اليه ابني تعليم شقيقتي كل هذه المدة . قال نعم يا سيدي ولم يسعدني الطالع بمشاهدتك يوماً مع طول تعلي بهذا الامل . قالت يا للاسف فاني قد علمت ان استاذاً يحضر في كل يوم لتدريس شقيقتي غير انه لم يخطر لي ان اتينه مرةً ولا عرفت من امره سوى ان اسمه جبرائيل كما كانت تقول شقيقتي . فاجابها وقد اغرورقت عيناهُ اجل هو اسم هذا الشقي البخت الذي تربيته امامك وقد حضر ساعياً الى حتفه بظفه اذ اصاب فؤادهُ من سهام اليأس ما قطع معه الامل من الحصول على مبتغاهُ فسعى للابتعاد عن هذا المنزل المقدس الذي رأى فيه علة شقاؤه .

فحققت لهُ ان لا علم لها بشيء مما يذكرهُ ثم دارت بينهما الاحاديث وفي آخر الامر تعاهدا على الحب واقسم كلُّ منهما أن يجعل حياته وفقاً على الآخر ولا يميل الى سواه وهنا قطع حديثهما وصول الاب وهو

ينادي ماري ماري واذا أبصر جبرائيل الى جانبها هش له ودعاها الى غرفة الاستقبال حيث خلا كل منهما بصاحبه حيناً وبعد ذلك خرج جبرائيل كاسف البال حزينا لان نعمان بك رفض قبوله صهراً لسبب ضيق ذات يده

واعيا جبرائيل وجود وسيلة تتوفر بها لديه الثروة في مدينة بيروت لقلة موارد الكسب فيها فاضطر ان يسافر الى الاسكندرية فالقاهرة فودع حبيته سراً وتبادلا التذكار بعد ان كررا الاقسام على حفظ العهود ولم يمض القليل على وصوله حتى وفق الى خدمة في بعض دوائر الحكومة فكان يعنى النفس بالترقي القريب . وكانت حينئذ قد جهزت حملة لفتح السودان تحت قيادة غردون باشا وعين جبرائيل من جملة الذين يرافقون الحملة فوجم اولاً واستاء غير انه ما لبث ان افتر ثغره ابتساماً لما تجلى له من الآمال فسافر في جملة الجيش وكان يحضر معه مواقع القتال وهو غير مبال بما لعله يصيبه من غوائل الحرب طمعا في الاقتراب من حبيته وارضاء ايها واظهر من الجرأة والاقدام ما حببه الى ولي امره وفتح له باب الرجاء في الترقي . غير ان الدهر لم يلبث ان قلب له ظهر المجن وبدد جيش آماله بوقوع الفرقة الذي كان فيها في اسر قوم لا يعرفون للشفقة معنى فاستباحوا دماء البعض منهم واسروا البعض الآخر وكان جبرائيل من جملة من أسر فتعنى لو اتبعوه باخوانه القتلى تخلصاً من تلك الحياة الثقيلة والمذاب المستمر . فلبث في الاسر مدة ثلاث عشرة سنة ذاق فيها من نكال الاسر ومرارة العيش ما لا يحيط به وصف وحدثه نفسه

مراراً بالاتجار ثم كان يعاوده الأمل في التخلص والوصول الى لقاء حبيبته التي لم يكن له تعزية سوى ذكرها والنظر الى نوط لطيف كانت قد اهدته له قبل رحيله فعلقه بين صدره وقمصه وجعل ينظر اليه من وقت الى آخر وينص بالحسرات . وفي ذلك الحين بلذته خبر قدوم الجيوش المصرية والانكليزية لفتح السودان فلمع امام عينيه بارق الأمل وجعل يحاول الهرب من ايدي الأعداء فتم له ذلك بعد عناء شديد وذهب فانضم الى الجيوش الفاتحة بعد ان اطلع القائد العام على حقيقة امره وبينما كان ذات يوم مع صفوف المحاربين اصابته رصاصة من يد العدو فخر صريعاً فاحتمله رجال فرقه الى المستشفى حيث وضعوه على فراش في احدى الغرف وحضر الطبيب لضمد جراحه وبعد الفحص اعلن ان لا أمل في حياته .

ولما دنا مني السياق تعطفت عليّ وعندي عن تعطّفها شغلُ
 اتّ وحياضُ الموت بيني وبينها وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصلُ
 مرّت على جبرائيل اربع وعشرون ساعةً وهو يتقلب بين الأوجاع
 والآلام ورشده غائبٌ لا يبى مما حوله شيئاً . ثم عرضت له انتباهة وهي
 الانتباهة الاخيرة ففتح عينيه فلم ير عنده احداً سوى راهبة من جمعية
 الصليب الاحمر اللواتي خصصن انفسهن لخدمة المرضى وكانت جاثية قرب
 سريره تنظر في النوط الذي على صدره وتبكي بدموع حارة وتسأل له
 الشفاء ممن عينه لاتمام . وكان الجريح في حال غيبوبته يتلفظ من وقت

الى آخر بكلماتٍ متقطعةٍ يتخللها اسم ماري احياناً فلما فتح عينيه وقع نظره
على الراهبة فتبسم شاكراً عنانها ثم اطبق جفنيه وظهر على وجهه بعض
التأثر وجمجم بكلماتٍ فهمت منها قوله آه ما اشبهها بماري ثم تنهد وقال
ماري حبيتي هاءنذا اموت فدى عينيك . وعند ذلك صاحت الراهبة
آه يا جبرائيل رفقا بي . فذنبه الجريح لدى استماع ذلك الصوت وحدث بها
ملياً واذ تحققت له معرفتها ورأى خاتمةً في يدها ارتعش ارتعاشاً شديداً
واشدد به التأثر بحيث منعه خفقان قلبه عن الكلام فاخذ يديه المبلتين
بالدموع وضمهما الى صدره وصاح بصوته الضعيف المتقطع ماري ماري .
فقال جبرائيل انا هي تلك الشقية فارحم قلبي . فكرر قوله ماري ماري ثم
قبل يديها ثانيةً وساد السكوت حيناً كانت في اثنائه تتساقط دموعها بغزارة
فتمتزج فوق ايديهما المشتبكة بعري الدقائق الاخيرة الباقية له من الحياة
واخيراً اشار اليها ان تخبره شيئاً من امرها فقالت اني بعد ان مضت
عليّ عدة سنواتٍ ولم يأتي خبرٌ منك يئست من لقاءك فانقلبت صورة
الدنيا في عيني ولم اعد اجد فيها ما يجيبها اليّ ففضلت عليها الحياة في هذا
الثوب و اشارت الى ثوبها الاسود الرهباني . فقال شكراً لك ايها الملك
الكرم وما كاد يتم هذه الالفاظ حتى تلاشت قوته وعلت جبينه صفرة
الموت ورأت ماري ان ساعته قد دنت فاكبّت عليه ترش وجهه بدموعها
الحارة ففتح عينيه مرة اخرى وقال استودعك الله . اذكريني يا ماري . .
ثم فاضت روحه